

الفصل الثالث

مثالية شلنج

- تمهيد
- حياته وأعماله
- شلنج وفلسفة فشته
- فلسفة الطبيعة
- المثالية الموضوعية

obeikan.com

تمهيد

كانت روح العصر في حياة "شلمنج" هي روح التوحيد الكلي الذي تمثل: في سياسة الثورة الفرنسية الداعية إلى المساواة بين جميع الناس في كل أرجاء الدنيا، وفي النزعة القيصرية التي تجسدها "نابليون"، فحاول أن يضم أوروبا تحت لواء واحد ومن بعدها العالم بأسره. وتمثلت النزعة إلى التوحيد الكلي في الفن والشعر والعلم والفلسفة: في الفلسفة يرد المعرفة كلها إلى مبدأ واحد على أساسه يبني بناء الفلسفة، وهو ما فعله "فشتته" في هذا العلم حيث رد العلم كله إلى مبدأ واحد هو "الأنا المطلق". وفي الشعر يجعل الشعر ذا نزعة كلية لأنه هو تفسير الطبيعة الكلية والتاريخ والإنسان. ولن يتم تكوين الشاعر إلا إذا أحاط بكل الشعر في مختلف العصور والبلدان، ولهذا نجد دعوة إلى الإحاطة بالشعر العالمي؛ فراح "أوجست اشليجل" يترجم شكسبير، و"تيك" يُترجم دون كيشوت و"جريس" يترجم توركوانوتو. وفي الدين اتجه بعضهم إلى الكنيسة الكاثوليكية لأنها هي الكنيسة التي تمثل النزعة الجامعة الشاملة الكلية (1).

ولقد وجد "شلمنج" في مذهب "اسبينوزا" النموذج الأعلى للتفكير الفلسفي، ذلك لأن مذهبه توحيد شامل يقوم على أساس مبدأ وحيد هو "الجوهر". وحاول "شلمنج" أن يفهم "فشتته" على أساس أنه تجسد لنزعة "اسبينوزا" حيث رأى تشابهاً بين المذهبين، حتى إنه في بحث بعنوان: "الأنا بوصفه مبدأ الفلسفة" يعلن عن رغبته في تشييد مذهب يكون بمثابة تكملة لكتاب "الأخلاق" لـ "اسبينوزا" ولهذا يستعير منه الصفات التي يخلعها على المطلق مثل: الهوية المحض، والوحدة، واللاتناهي، والقدرة المطلقة، والحرية، وكلية الوجود.

و"شلمنج" يرى في "اسبينوزا" أول من تجاوز التعارض بين الطبيعة وبين العقل

أو (الروح)؛ قال:

« إن "اسينوزا" كان أول من أدرك بشعور تام وحدة الروح والمادة، من حيث أن الامتداد والفكر ليسا غير تحولات لنفس المبدأ. وكان مذهبه أول تخطيط جريء صدر من خيال مبدع أدرك المتناهى على أنه متضمن مباشرة فى الفكرة اللامتناهية الخالصة» (2).

ومن هنا رأى "شلنج" أن كل فلسفة سابقة كانت فلسفة سلبية، ولا يرى بذوراً وإرهاصات للفلسفة الإيجابية إلا عند "أفلاطون" والأفلاطونية المحدثة و"الغنوصية" ولدى "اسينوزا".

والفلسفة الإيجابية عند "شلنج" تنطوى على عدة أمور:

إرادة الخروج من الذاتية إلى الموضوعية، وذلك ما قام به ضد "فشتنه" بأن أنشأ أولاً فلسفة الطبيعة ثم فلسفة الفن حتى وصل إلى فلسفة الأساطير والوحي ثم فلسفة التاريخ؛ وإرادة الحرية، وتوكيد الوعى المسيحى، وإرادة إيجاد دين جديد حق - دين فلسفى.

حياته وأعماله

ولد "شلمنج" فى "ليونبرج" Leonberg بجنوب غربى ألمانيا فى 27 يناير عام 1775. وكان أبوه ذا علم باللاهوت "العهد القديم" من الكتاب المقدس، ويعرف بعض اللغات الشرقية وآدابها، وله كتابات فى اللاهوت والوعظ، وأمّه هى الأخرى تنتمى إلى أسرة قسيسين. وكان لهذه الوراثة اللاهوتية أثرها الفعال فى "شلمنج"، ألحقه الأب بمعهد "ديرانى" لإعداد الطلاب للالتحاق بجامعة "تويتجن" Tubingen لدراسة اللاهوت. وظهر نبوغه المبكر فى الدراسة. وفى 1790 التحق بالجامعة ومضى فيها خمس سنوات من 1790 إلى 1795. القسم الأول منها فى دراسة الفلسفة، والقسم الثانى أو الأخير فى دراسة اللاهوت. ولقد تعرف فى الجامعة على شخصيتين (لهما مستقبل عظيم فى الأدب والفلسفة فى ألمانيا) هما "هيلدرن" الشاعر و"هيجل" الفيلسوف⁽³⁾.

وحين جاء "شلمنج" إلى "توبنجن" كان علمه بالفلسفة مقصوراً على مذهب "الليبنتر"، ولم يعرف بعد شيئاً عن مذهب "كانط". وقرأ أول ما قرأ فى الفلسفة، شروح "رينهولد" لـ "نقد العقل الخالص" لـ "كانط"، وقرب انتهاء مقامه فى "توبنجن" بدأ بقراءة مؤلفات "فشتنه" الأولى، وأعجب بنظرية العلم عنده، ورأى فيها أول تقدم حقيقى فى التفكير النقدى الذى بدأه "كانط". وفى الوقت نفسه كان يتابع دراساته اللاهوتية باهتمام بالغ، وأدرك ضرورة النقد التاريخى فى الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس.

وفى عام 1792 حصل على درجة الأستاذية فى الفلسفة وفى عام 1795 حصل على الدرجة نفسها فى اللاهوت، وكانت رسالته فى الفلسفة تتعلق بموضوع مستمد من الكتاب المقدس، وهو "بحث نقدى فلسفى فى شرح أقدم الأقوال الواردة فى الإصحاح الثالث من سفر "التكوين".

وبدأ يتطلع إلى منصب أكاديمي، وسنحت له الفرصة بأن عين في جامعة "بيننا" (حيث كانت مركز الفلسفة في ألمانيا كلها) فارتحل إليها "شلمنج" عام 1798، واستطاع أن يضع أساس مذهب الفلسفي من خلال محاضراته في جامعة "بيننا" (4).

ومكث في جامعة "بيننا" أربع سنوات نشر خلالها الكتب التالية: "في النفس العالمية" عام 1798، وبداية مذهبه في "فلسفة الطبيعة" و"فكرة العلم الطبيعي النظري" عام 1799. و"مذهب التصورية الذاتية" عام 1800. و"برونو أو في المبدأ الإلهي والطبيعي للأشياء" عام 1802 ثم في مرحلة أخرى فصل آراءه في الفلسفة الطبيعية متأثراً بـ"اسبينوزا" و"الأفلاطونية المحدثة وعصر النهضة" (5).

ثم انتقل "شلمنج" بين عامي (1803 - 1841) بين جامعات "أيرلنجن" و"ميونخ" و"برلين" وهو يحاضر ويكتب في فلسفة الدين، فنشر عام 1804 "الفلسفة والدين" و"بحوث فلسفية في ماهية الحرية الإنسانية" عام 1809 وبعد وفاته عام 1854 نشر له "فلسفة الأساطير" و"فلسفة الوحي".

شلاج وفلسفة فشته



بدأ إعجاب "شلاج" بـ "فشته" (بوصفه التكملة الصحيحة لمذهب "كانط") بعد دراسته لـ "نقد العقل الخالص" لـ "كانط" عام 1791. وبعد ثلاث سنوات وجد فى "فشته" خير من يواصل ويتم مذهب "كانط". وفى عام 1797 أنشأ فلسفة الطبيعة داخل مذهب العلم عند "فشته"، وتعد هذه أول مرحلة فى تطوره الفلسفى.

ماذا رأى "شلاج" فى فلسفة "كانط" من نقص؟ ووجدتها تنقض وحدة المبدأ الذى من شأنه أن يعطى هذه الفلسفة وحدتها، وهذا النقص هو الذى تلافاه "فشته" بمذهب العلم حين جعل هذا المبدأ هو "الأنا المطلق". ومن هنا كانت نقطة البدء عنده هى بعينها نقطة البدء عند "فشته" وهى كيف نقضى على الثنائية التى أفضى إليها "كانط" بين عالم الظواهر وعالم الأشياء فى ذاتها (6).

إن الفلسفة وكذلك العلم - فى نظر "فشته" و"شلاج" - لا يمكن أن يقوما إلا إذا وجد مبدأً للتوحيد، أى مبدأً يوحد بين المعارف كلها بحيث تترابط فيما بينها ارتباطاً دقيقاً ضرورياً يستمد ضروريته من هذا المبدأ الواحد، هذا المبدأ الأساسى الذى يستمد منه كل علم وجوده.

لكن "فشته" انتهى إلى أن كل شيء من "الأنا" وإلى "الأنا" ينتسب ولا شيء خارج "الأنا"، وما نسميه حقيقة خارجية وموضوعات خارجية لا يوجد فى ذاته بهذا الوصف، بل يوجد بوصفه لحظة من لحظات الأنا، فالموضوع ما هو إلا "الأنا" حين يضع نفسه فى مقابل "اللا - أنا"، فهو يفصل فى نشاطه شيئاً يسميه الموضوع ويحاول أن ينتصر عليه. وواضح أن العالم الخارجى بالمعنى المألوف قد اختفى وزال وأصبح الإنسان أمام عالم كله ذات خالصة ولا عمل فيه لأى موضوع فكل شيء يندرج فى داخل هذا الأنا الخالص المطلق. وعلى هذا فالطبيعة ليس لها وجود حقيقى عند "فشته" (7).

أما عند "شلنج" فالطبيعة على العكس لها من الوجود الواقعي ما لـ "الأنا" والعقل من وجود، ولهذا فإن الطبيعة عنده توجد مستقلة عن الموضوعات الإنسانية. وعلى الرغم من أن هذه الطبيعة فيها جانب روحي أساسى تقوم عليه، فإن هذا لا يمنع من استقلالها بنفسها. فهو يرى أن الوعى فى مروره من خلال الكثرة يصبح طبيعة، ومن خلال الطبيعة يستيقظ ليصبح روحاً إنسانياً. إذن فمبدأ الأشياء ليس هو "الأنا" كما هى الحال عند "فشتة" بل الهوية بين الطبيعة والروح المطلق الذى هو الطبيعة والروح معاً.

وهذا الروح المطلق يظهر أولاً على هيئة الطبيعة، ومن هنا نجد "شلنج" يتجه اتجاهاً واقعياً ومثالياً معاً، فهو واقعى لأنه يعترف بوجود الطبيعة، وهو مثالى لأنه يجعلها شيئاً مثالياً بمعنى أنها شيء خارج العقل البشرى. وكانت هذه النزعة إلى الطبيعة الواقعية بمثابة اتجاه جديد ظهر فى الفلسفة الألمانية فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر. فبدأ النزعة الطبيعية تحتل مكانتها فى مقابل مثالية "كانط" و"فشتة" التى حاولت إمزاج الطبيعة فى الروح وإعطاء العقل مكان الصدارة⁽⁸⁾.

فلسفة الطبيعة

تصور لنا فلسفة الطبيعة عند "شلمنج" العالم العقلى فيما نراه فى عالم الظواهر الطبيعية من أشكال وقوانين، إذن فموضوع تلك الفلسفة الطبيعية هو أن تستمد صورة العقل من الطبيعة. والطبيعة فى فاعلية دائمة ونشاط متواصل، وكل ما ترمى إليه هو "الحياة" ولكنها تسعى إلى الحياة الكاملة، ولذا نجد العقل المثبوت فى ظواهر الطبيعة يجاهد لكى يصعد من صورة ماهية دنيا إلى صورة أعلى حتى تبلغ مرتبة الكائن العضوى الذى يتمكن فيها من الإدراك. ومن هنا يقسم "شلمنج" فلسفته فى الطبيعة إلى أجزاء ثلاثة:

1- الطبيعة العضوية.

2- الطبيعة اللاعضوية.

3- التبادل بين الطبيعتين⁽⁹⁾.

والطبيعة العضوية فاعلية لا نهائية، وهى عبارة عن قابلية للإنتاج لا تنتهى، ونتيجة لهذه الفاعلية تكون مخلوقات نهائية هم الأفراد.

أما الطبيعة اللاعضوية تقوم على معارضة الطبيعة العضوية ومقاومتها، وهذه الطبيعة كتلة من المادة يُمسك بعضها إلى بعض عوامل خارجية.

ولكن لما كانت الطبيعة العضوية والطبيعة اللاعضوية لا يمكن لإحدهما أن توجد مستقلة عن الأخرى، فهما متصلتان تؤثر الواحدة فى الأخرى. ذلك لأن كليهما قد صارت عن أصل واحد مشترك، هو مبدأ الحياة.

إن مبدأ وحدة الطبيعة يقتضى رفع التقابل بين المتقابلات الظاهرة فى الطبيعة واستخلاص الطبيعة العضوية واللاعضوية لكليهما من مبدأ واحد هو قوة الحياة - كما ذكرنا توأماً - ولها يقول "شلمنج" فى مقدمة كتابه "نفس العالم":

« حينما يرتفع نظرنا إلى فكرة الطبيعة بوصفها كلاً، يختفى التقابل بين العضوية واللاعضوية، ذلك التقابل الذى أخر تقدم علم الطبيعة زمناً طويلاً ... وإن مبدئاً واحداً بعينه هو الذى يربط بين الطبيعة العضوية والطبيعة اللاعضوية» (10).

وهكذا نرى، بكل وضوح، أن "شلنج" كل أول من قرر أن الطبيعة تؤلف وحدة واحدة فى تطور مستمر، وأن العضوى مستنبط من اللاعضوى وبهذا نظر إلى علم الطبيعة كله بنظرة واحدة، وقرر أنه يستند إلى مبدئاً واحد .

المثالية والموضوعية

يقول "شلنج":

"إن العقل المطلق هو عبارة عن اندماج الذات والموضوع".

والمطلق هو الذى يشطر نفسه شطرين: عالم الواقع الخارجى، وعالم المثال العقلى. والعقل هو النقطة التى يتلاقى عندها الجانبان ويندمجان. وعلى الرغم من أن "الذات والموضوع" كليهما موجودان فى العقل الأسمى، إلا أن هذا العقل الأسمى نفسه، فى الوقت ذاته، يجرد نفسه منهما، ذلك لأن الذات والموضوع موجودان فى كل شيء، والفرق هو ترجيح جانب الذات فيه أو الجانب المادى الطبيعى منه، هذا التقابل الذى نجده بين الواقعى والمثالى (الذات والموضوع) نجد له تقابلاً نظيراً له فى ديانة العالم القديم والعالم الحديث. فالعالم القديم بما كان يسود فيه من ديانات طبيعية يمثل الجانب الذى ترجح فيه كفة الطبيعة، بينما ديانة العالم الحديث هى المسيحية التى ترجح فيها النزعة المثالية التصويرية. ولو أمعنا النظر فى سير التاريخ لنجد قد اجتاز مراحل ثلاثة:

مرحلة الطبيعة التى وصلت إلى عنفوانها فى الشعر اليونانى والديانة اليونانية.

ثم مرحلة الركون إلى القدر التى جاءت ختاماً للعالم القديم. ثم مرحلة الحكمة الإلهية التى بدأت بالمسيحية، إذ أصبح الله موضوعياً لأول مرة فى التاريخ بأن تمثل فى "المسيح" (11).

ومن هنا رأى "شلنج" أن العقل لا يحقق نفسه فى أسمى صورته إلا فى "الفن"، فالفن يصل العقل إلى ما لا يستطيع تحقيقه بجانبه الذاتى أو جانبه الموضوعى، فالعالم المثالى والعالم الموضوعى هما نتاج لفاعلية واحدة تخلق عن طريق "الفن".

مثالية كانط —————

- ولهذا انتهت "نظرية العلم" عند "فشتة" بالفلسفة العملية، وانتهت مثالية "شلنج" بفلسفة في "الفن".

مراجعة الفصل الثالث من الباب الرابع

(1) د. عبد الرحمن بدوي، المثالية الألمانية (شلنج) ص 181.

انظر أيضاً:

Good freyvesey, Idealism Past and Present, Cambridge university Press, London , New York , 1982 , p. 123.

(2) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص 184.

قارن كذلك :

Schelling, F, W, Jonseph Von, idealism and The endgame of Theory: Three essays, Translated and edited with a critical introduction by Thomas Pfau, State university of New York Press, 1994 .

(3) د. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ص 25 الجزء الثاني.

أنظر أيضاً :

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p. 596.

(4) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص 26.

أنظر أيضاً :

Jasan M, Wirth, The Conspiracy of life: meditations on schelling and his time, state university of New York Press , 2003 .

(5) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديث، ص 270.

(6) د. عبد الرحمن بدوي، المثالية الألمانية (شلنج) ص 187.

أنظر أيضاً :

James Collins, *op. cit.*, p. 576.

(7) راجع فى ذلك: د. إمام عبد الفتاح، المنهج الجدلى عند هيجل، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1981، ص 89.

(8) المرجع السابق، الموضوع نفسه.
انظر أيضاً:

Robert B, Pippin, Hegel's Idealism, The Satisfactions of self consciousness, Cambridge University Press, New York, 1989, p. 60.

قارن كذلك :

Andrew Bowie , Schelling and Modern European Philosophy , London , New York , Routledge , 1993 .

(9) د. زكى نجيب محمود، وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ص 231.
أنظر أيضاً :

Schelling , ideas for a philosophy of Nature as introduction to The Study of This Science , Translated by Errol F, Harris and peter Heath , New York , Cambridge University Press , 1988 .

(10) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص 235.

(11) د. زكى نجيب محمود، وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ص 234.
قارن كذلك :

Date F, Snow , Schelling and The end of idealism , State university of New York , 1996 .
